المحاضرة الخامسة : التفاسير الدينية للتاريخ (التفسير الإسلامي)

3- التفسير الإسلامي

أ ـ التاريخ في الإسلام:

قدم الإسلام تصورا مغايرا للمسيحية و اليهودية سواء بصدد الحياة على الأرض أو بصدد المثل الأعلى للإنسان، فليس خروج آدم من الجنة عقوبة على خطيئته كما تدعي الديانتين المسيحية و اليهودية و إنما لإعمار الأرض حيث يقول تعالى: (... إني جاعل في الأرض خليفة...)[1] و رفض الإسلام حياة الرهبنة المسيحية حيث قال الرسول لا رهبانية في الإسلام و جعل العبادة من صميم عمل بني آدم و نشاطهم فوق الأرض (هو أنشأكم في الأرض و استعمركم فيها)[2] فالمثل الأعلى للمسلم هو العالم العامل لا رجل الدين الناسك إضافة إلى أن مبدأ التوحيد يعد تطورا هاما في التصور الديني بعيدا عن التثليث المسيحي. و يؤكد على ذلك حجة الإسلام في منهجه الشكي بضرورة إعادة النضر في كل ما يحيط بنا من عادات و عبادات ، حتى نعيد بناءه بناء صحيحا.

فمعنى الخلافة التي جاء بها الإسلام إنما تعني أمرين:

ـ المكانة المرموقة للإنسان الذي اجتمعت فيه على حد تعبير ابن عربي كمالات الوجود كلها الروحية و الفكرية و المادية، بما لم يجتمع في مخلوق آخر، حتى الملائكة التي يعوزها الكمال المادي أو الجسمي. و هكذا أشاع الإسلام نضرة متفائلة بديلا عن التصور الملازم للخطيئة الأصلية في اليهودية و المسيحية.

ـ و تقتضي الخلافة كذلك أن يفوض الإله بمشيئته المطلقة للإنسان العقل و الحرية من أجل عمارة الأرض، بعد أن علمه دون سائر ملائكته الأسماء كلها، و بالعلم اكتشف الإنسان ظواهر الكون، و سخرها بما ينفعه و حجتنا على ذلك أن أول كلمة نزلت على الرسول صلى الله عليه و سلم هي «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

---

[1] ـ سورة البقرة الآية30

[2] ـ سورة هود الآية 45

(3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5)»[3]. لم يقدم الإسلام هذا التصور الجديد عن الإنسان فحسب و إنما سخر له جميع مخلوقاته في البر و البحر و بذلك تهيأت له أسباب التفوق و التمكن، رغم ما كان له من قدرة محدودة على مستوى الطاقة البدنية و لكنه عندما يستعمل عقله يسخر قوة الطبيعة لخدمة غاياته. و قد لفت القرآن الكريم نظر المسلم إلى ظواهر الكون طالبا منه النظر و التدبر وهذا ما يؤدي إلى نشوء العلم و تطوره، و بالعلم تنشأ الحضارات و تتطور

و بمجيء الأنبياء و الرسل اهتدت البشرية إلى دلائل قوة الله و قدرته كالقمر و الشمس و الكواكب التي هي دلائل على القدرة الربانية، لقد اهتدوا بعد طول تأمل و اعتمدوا القمر في قياس الزمن و ضبط المواقيت و الفصول الموسمية قبل أن تعرف الدنيا أي جهاز للرصد الفلكي أو البوصلة.

لكن أتباع إبراهيم عليه السلام لم يلبثوا أن عادوا إلى ظلالهم و اهتموا بالكواكب حتى العبادة، حيث يخبرنا التاريخ عن طريق –القصص الديني- أن عبادة الشمس كانت دين سبأ حيث يقول الله تعالى: (وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)[4]. و قد كان عرب الجاهلية قبل الإسلام قد ربطوا دورة القمر بمواسمهم الدينية و مواقيت حجهم و الأشهر الحرم- التي لا يحل فيها القتال – فإن القرآن الكريم قد أضفى على القمر جلالا و حرمة حين جعل منه المقياس الزمني لمواقيت فريضة الصيام و الحج و الأشهر الحرم، كما ضبطت به الشريعة الإسلامية كل الأحكام التي تتعلق بأوقات حلول عيد الفطر، مواعيد الزكاة، و حيثما ذكر الشهر في آيات الأحكام كالكفارة بالصيام، و أشهر الإيلاء و العدة و غيرها، إدا لقد تحدث القرآن الكريم عن سر الأهلة في وقت لم يبدأ عصر العلم التجريبي و لم يكن في طاقة البشر أن تدرك أسرار علم الفلك إلا أن ترجم بالضن أو تخوض في غياهب الميتافيزيقا و تحليلات العقل الإنساني، فحتى عصر نزول القرآن لم يكن الإنسان يدرك من علم الفلك إلا تصورات ذهنية بسيطة اختلط فيها السحر

---

[3] - سورة العلق الآية من 1 إلى 5

[4] - سورة النمل الآية 24

البابلي بالتأملات الميتافيزيقية لكهنة الفراعنة و فلاسفة اليونان و الإشراق الصوفي لروحاني الهند و الصين.

كما أكد البيروني أن التأريخ بهجرة النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه من مكة إلى المدينة هو على السنين القمرية برؤية الأهلة لا بالحساب و عليه يعمل أهل الإسلام بأسرهم.[5]. إذا نستنتج مما سبق أن لفظ "تاريخ" كتعبير عن الماضي أو عن العلم الذي يهتم بدراسته ليس دخيلا على الثقافة العربية الإسلامية و لا هو وليد العصر الحديث بل هو من صميم العقيدة الإسلامية و التاريخ الديني يشهد على ذلك، إضافة إلى أن المصطلح بمفهومه الحقيقي كان شائعا لدى المؤرخين المسلمين.[6]

- حيث كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في تصور المسلمين للتاريخ، لأن ما ورد ذكره في القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم قد حدد خصائص التاريخ الإسلامي.

- اتخذ الدين الصدارة التاريخية في القصص القرآني قبل السياسة أو الحكم، فذكر فرعون مثلا لم يأتي إلا بسبب موسى أو يوسف عليهما السلام، أو في موضع آخر بسبب طغيانهم.

- إن الهدف من قصص القرآن هو الموعظة و العبرة فهو هدف ديني أخلاقي .

- و بداية التقويم الإسلامي حدد بالهجرة، فجمع التاريخ إلى الحديث حقق أهدافا مشتركة تتمثل في تسجيل نظم الحياة الدينية و الفكرية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية كما شرعها الرسول صلى الله عليه و سلم و هي جوانب حضارية.

ب ـ فكرة التماهي بين التاريخ والإسلام

يقوم مبدأ التصور الإسلامي للتاريخ على مبدأ التأليه الذي يعتبر مبدأ أساسي في المعتقدات الإسلامية، حيث تعتبر أن الله ذات وروح فردية، ليس كمثله شيء لا في السماء ولا في الأرض، لا في الدنيا ولا في الآخرة، مصداقا لقوله تعالى: « قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ

---

[5] ـ البيروني: **الآثار الباقية**، مراجعة عبد الحليم محمود و عبد المنعم يوسف، منشورات المكتبة المصرية، ص 130.

[6] ـ البيروني: **الآثار الباقية** ، مرجع سابق، ص 29.

﴿لصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤ ﴾[7]، فمن صفات الله تعالى القوة والحكمة والرحمة وغيرها من الصفات الكثيرة التي ينفرد بها، فهو موجود لا موجد له، أزلي أبدي موجود في كل زمان ومكان.

مع ظهور الإسلام كانت الديانتين اليهودية والمسيحية موجودتين ومنتشرتين بقوة، وسبب انتشارهما إلى جانب بعضهما البعض هو تشابههما، كما لهما آراء متشابهو في التفسير التاريخي للحياة البشرية. لكن إذا قارناهما بالدين الإسلامي، نجده يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم الوجود دون تعسف، لأن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جمود من ناحية العقيدة وغيرها. فقد أدرك الإسلام الوجود التاريخي العظيم، حيث أن العالم ينتهي يوم القيامة، وهو يوم الفصل، تسأل فيه كل الأشياء. إن يوم القيامة في الدين الإسلامي هو حادث ثابت، معروف في المستقبل، ويمكن أن تطبق فكرة يوم القيامة مباشرة على تقدير أعمال الحاضر، وهذا ما جعل أعمال البشر تكتسب صفة الخلود. فالتاريخ في الإسلام يبدأ منذ أن خلق الله العالم، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء، ورسالته آخر الرسالات.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم متصل بسلسلة الأنبياء الذين سبقوه، فهو خليفة سيدنا إبراهيم عليه السلام. لقد كان الشعور التاريخي عميقا عند نبي الإسلام محمد، حيث انصرف إلى التبشير بالدين الإسلامي، وأخبرنا الإسلام ببعض الأحداث التاريخية، التي لولا الإسلام لما بلغتنا، مثل النزاع الذي كان دائرا بين الفرس والروم. يقول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ (1) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (2) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (3) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (4) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (5) ﴾[8]. فالأحداث التي أحاطت بالرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين، أشار القرآن الكريم إلى الكثير منها، وكانت هذه الآيات تتفق مع موقف الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه التاريخ. لقد كان نزول هذه الآيات له أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، وهو ما جعل لها أهمية تاريخية للمسلمين.

لقد كان الهدف الأسمى من القرآن الكريم هو جمع الناس، والتنبيه إلى علاقاتهم بالله تعالى، حيث لا يستطيع الإنسان مطلقا الفرار من الله في التاريخ، فهو من خلقه، وهو من يعيده إليه،

---

[7] - **سورة الإخلاص**

[8] - **سورة الروم** ، الآية من 1 إلى 5.

يقول الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ».[9] إن الله قد بعث الأنبياء الأنبياء والرسل لهداية الناس، ولم تحصل البشرية على هدايتها في التاريخ إلا من القرآن، فنقطة الدوران الرئيسية في التاريخ هي نزول القرآن. لقد كان اتجاه الاسلام في التاريخ، اتجاه يقوم على المذهب التحسني، فمتى تزايد إقبال الأفراد على الطاعة تحسنت الأمور وعاشوا سعداء، فالحياة لا تستقيم من دون عقيدة.

لقد روى الإسلام للبشرية تاريخ وسير الأنبياء، حيث أخبرنا بأن :

1- النبي نوح هو رائد صناعة السفن

2- النبي إدريس عليه السلام كان عالما فلكيا، وهو أول من خط بالقلم، وأول من لبس المخيط

3- النبي إبراهيم والنبي إسماعيل عليهما السلام كانا يتقنان حرفة البناء، فهم من رفع قواعد البيت الحرام في مكة.

4- النبي يوسف عليه السلام كان عالم اقتصاد

5- النبي موسى عليه السلام كان قوي أمين، أول من وضع الدروع وسخر قوى الطبيعة

6- كان المسيح عليه السلام يطب الأجسام ويشفي الناس من الأمراض بإذن الله تعالى.

7- النبي محمد عليه الصلاة والسلام، كان يرعى الغنم ويتاجر ويحارب المشركين، دفاعا عن الحق.

إن المشكلة الاقتصادية في الإسلام، ليس سببها قلة الموارد الطبيعية أو عدم بلوغ التطور غايته، وإنما كانت بظلم الإنسان، وسوء توزيع الثروة، ونكرانه للنعمة، وكان ذلك بإهماله لاستثمار الطبيعة التي سخرها الله له.

---

[9] - **سورة الانشقاق**، الآية 6.